لغة الصحافة في مصر
منذ ظهور الصحافة في القرن الماضي

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

على الرغم من أن (الصحافة) ظهرت في أول أمرها في الصين، في القرن العاشر قبل الميلاد، فإن الصحافة بمفهومها ومظهرها الحديث لم تظهر إلا في القرن السادس عشر، بعد اختراع الطباعة بوساطة جوتنبرج.

والصحافة العربية هي من حسنات القرن التاسع عشر، وإن كانت أول صحيفة عربية هي التي أنشأها نابليون في مصر سنة ١٧٩٩ آملا أن يوطد بها أركان حملته ... ثم جاءت بعدها (الوقائع المصرية) التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨، ويليها (المبشر) التي أصدرها الفرنسيون في الجزائر سنة ١٨٤٧ فكانت الجريدة الثانية في العالم العربي.

وقد عرف قدر «الصحافة» كثيرون من العظماء والمفكرين والقادة والسياسيين والأدباء والشعراء... فهذا هو البابا ليون الثالث عشر يقول: (الصحف رسالة خالدة). وهذا بونابرت يقول: (الصحافة ركن من أعظم الأركان التي تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران) وهذا تولستوي يقول: (الجرائد نفير السلام، وصوت الأمة، وسيف الحق القاطع، ومجيرة المظلوم، وشكيمة الظالم .. فهي تهز عروش القياصرة، وتدك معالم الظالمين ..). وهذا فولتير يقول: (الصحافة آلة يستحيل كسرها، وستعمل على هدم العالم القديم، حتى يتسنى لها أن تنشىء للدنيا عالما جديدا ...):

وقد قدرها في عالمنا العربي اثنان من نوابغ خريجي دار العلوم سنة ١٨٩٢ ومن أوائل المشتغلين بالصحافة. حيث قالا في مجلتهما: «المنتقد» التي أصدراها شهرية سنة ١٨٩٣، وهما: الشيخ أحمد الأزهري بك، ومصطفى الدمياطي ..: (إن نعمة الجرائد على البلدان. لا تقل عما تشرف به الإنسان من نعمة البيان. وإن كل بلاد

(*) ألقيت المحاضرة في الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع في دورته التاسعة والأربعين (الثلاثاء ١٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٣ هـ، الموافق أول مارس سنة ١٩٨٣ م).

توفر حظها من هاته النعمة، تكون أسمى وأرقى من التى لم تنل حظا يدرك هذه النعمة)

ونذكر لأنطون الجميل باشا — رئيس تحرير «الأهرام»، وأحد أعضاء مجمعنا الراحلين — قوله عن الصحافة: (إنها شجرة الحقيقة يغرد على أفنانها الكتاب الصادقون).

وقد عدها أمير الشعراء أحمد شوقى آية هذه العصور الحديثة فى قوله من قصيدة، يحيى بها نقابة الصحفيين فى عيدها الأول:

لكل زمان مضى آية
وآية هذا الزمان الصحف
لسان البلاد ونبض العباد، وكهف الحقوق وحرب الحيف

و «الجريدة» هى بعينها «الصحيفة»..

إلا أن الكونت رشيد الدحداح اللبنانى أول من استعمل كلمة (صحيفة) لجريدة (برجيس باريس) العربية التى أصدرها فى فرنسة سنة ١٨٥٨ وتابعه الناس أول الأمر، ثم جاء بعد ذلك بسنوات، اللغوى فارس الشدياق فآثر كلمة (جريدة) ودار من أجل ذلك نقاش طويل انتهى إلى أن جاء الشيخ إبراهيم اليازجى سنة ١٨٨٤ فأسمى مجلة (الطبيب) باسم: (مجلة) وكذلك فعل فى مجلتيه: (البيان) و(الضياء) اللتين أصدرهما بمصر سنة ١٨٩٧ و سنة ١٨٩٨ على الولاء. ومن ذلك الحين أطلق اسم (الجريدة) على الصحيفة اليومية الإخبارية السياسية واسم (المجلة) على الصحيفة الدورية: أسبوعية كانت أم شهرية أم دورية.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الشيخ رفاعة آثر إطلاق كلمة (الوقائع) على الصحيفة اليومية، ومن هنا جاءت تسمية (الوقائع المصرية) التى عهد إليه بإصدارها وتحريرها، ولكن الدكتور لويس صابونجى اللبنانى وصاحب مجلة (النحلة) التى أصدرها بلندن، استعمل لفظة (نشرة) فى مقابل كلمة (جورنال) الفرنسية بمعنى الجريدة، كما استعمل إخواننا الجزائريون فى القرن الماضى عبارة: (الورقة الخبرية) وهى ترجمة حرفية لعبارة Newo Paper الإنجليزية.

ومن اللطيف أيضا أن الصحافيين والقراء كانوا قبل الثورة العربية لا يفرقون فى الاستعمال بين (جريدة) و (مجلة) إلى أن جاء إبراهيم اليازجى سنة ١٨٨٤ فوضع حدا قاطعا للتمييز بينهما حين أصدر مجلاته الطبيب والبيان والضياء.

والصحافة — عموما — أنواع، فمنها الصحافة السياسية، والصحافة الأدبية، والصحافة العلمية، والصحافة الدينية، والصحافة الفكاهية، والصحافة النقدية، وقد تختص صحيفة أو مجلة بنوع واحد لاتعدوه إلى غيره، كما قد تجمع واحدة بين أن تكون علمية أدبية ثقافية، كما ظهر ذلك واضحا فى مجلات المقتطف والهلال فى القرن الماضى، والرسالة والثقافة فى القرن العشرين.

ولقد كانت لغة الصحافة — أول ظهور الصحف والمجلات فى القرن الماضى — تابعة للغة العامة التى كان يكتب بها الناس أو يتخاطبون .... فهى لغة هابطة بلغت أدنى درجات الضعف والهبوط التى وصلت إليها الآداب العربية عامة . وكان الكتاب والمحررون يحشون عباراتهم بألفاظ تركية ، أو أفرنجية كثيرة ، أو عامية مما يلفظه العوام . ولم يكن هناك تحرج من ذلك ، أو لم يكن هناك تنبه لخطره على سلامة اللسان والبيان العربى . وقد دخلت الألفاظ الأجنبية المعربة إلى لغة الصحافة — كما دخلت إلى لغة الكتابة والتأليف — بلا ضابط . بل كان رائد فى الصحافة والفكر مثل رفاعة رافع يلجأ إلى إدخال الألفاظ الأعجمية بطريق (التعريب) ، بالإضافة إلى جهوده التى لا تنكر فى ميدان (الترجمة) . فصرنا نجد فى لغة (الوقائع المصرية) مثل هذه العبارات : افتتاح «برلمنتو» إنكلترة . و «فاميلية» الحضرة الفخيمة . وشهر «زانويه» أى يناير ، و «البولوتيقة» الخارجية أى السياسة الخارجية .

واجتمع مع غزو لغة الصحافة بلغة الأجانب ولغة العوام ، غزو آخر من هبوط الأسلوب وركاكته وازدحام العبارات بالمحسنات البديعية ، كالذى نجده فى نعى ابنة محمد على المنشور بالوقائع سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م . حيث يقول : « إن الكاتب حزين ، حتى إن قلمه انغمس بمداد المأتم ، وأسال دمع المداد كالدم . وصريره أبدى زفير الحزن والألم ، حزنا على حضرة المعصومة ، والدرة المعدومة فرع الأصل الأصفى ، منبع الجود الأحفى ، وهى التى كانت الإسكندرية متشرفة بها ، ومكسوة ثوب شرف بها ... » .

وقد بلغ من سلطان (العامية) فى لغة الصحافة أنها لم تكتف باستعمالها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بل امتد أثرها حتى قبيل الثورة العرابية بعام واحد ، حين أصدر السيد عبد الله نديم سنة ١٨٨١ جريدته (التنكيت والتبكيت) فخصص قسما غير قليل من صفحاتها باللغة العامية .... ولعله رأى بحكم روحه الثورية أن يمد مجال انتشار كتاباته إلى العوام ليبلغهم صوت الثائر الممهد لثورة عرابى . وقد كان النديم يجمع فى كتاباته بين الفصحى والعامية . وتعد كتاباته الصحفية بالفصحى نموذجا للبيان العربى المشرق الخطابى المؤثر . وإن كان يؤثر السجع ويحشو عباراته بالمحسنات اللفظية الكثيرة التى لم تخرج عن روح العصر ومزاجه .

وإذا اغتفرنا لعبد الله نديم اتجاهه للغة العامية تحقيقا لهدف سياسى جليل ، فإننا لا ننسى له حبه للغة العربية الفصحى ، واهتمامه بها وإشادته بقيمها حين كتب فى مقال صحفى له بعنوان «إضاعة اللغة تسليم

للذات » حيث يقول فيه : « أيها الناطق بالضاد : بم تستبدل لغتك ومالها من مثيل . وإلى من تتركها وأنت لها كفيل ؟ وما الذى استحسنته فى غيرها واستقبحت مقابله فيها ؟ وأى شىء طلبته فيها ولم تجد له اسما ؟ لبيك أيها الأخ الشقيق ، وإن لم نحمل فى بطن واحدة ، اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم . وهى التى بها جذبت قلب أمك ، واستعطفت جانب أبيك ، وتملكت فكر أخيك ، واستملت صاحبك ، وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك ، فهى أنت إن كنت لا تدرى من أنت . وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن » ؟

ويبدو أن سلطان العامية فى لغة الصحافة فى ذلك العهد من القرن الماضى كان قويا ، وتيارها كان مندفعا متدفقا . وبلغت فيها النكبة أن صحفا غير قليلة قد بدأت تصدر باللغة العامية وتتميز بها ، ووجدت من جمهرة من القراء إقبالا عليها ، وغراما بها ، مثل جريدة « أبو نظارة » التى أصدرها فى باريس اليهودى الإيطالى المصرى يعقوب صنوع ، والتنكيت والتبكيت التى أصدرها عبد الله نديم فى مصر سنة ١٨٨١ م ، والسيف التى أصدرها حسون وحسين على سنة ١٩١٠ والمسامير التى أصدرها السيد عارف سنة ١٩٠٩ وحمارة منيتى ، التى أصدرها محمد توفيق ١٨٩٩ .

ولم تكتف اللغة العامية بهذا الغزو الصحافى حتى قامت فى سنة ١٨٩٣ حملة شديدة على الفصحى ، ودفاع شديد عن العامية قام به المهندس الإنجليزى مستر «ويلكوكس» مفتش الرى بمصر ، وسجله على صفحات مجلة (الأزهر) التى شاركه فى إصدارها الشيخ أحمد الأزهرى[1]

ولقد حرصت بعض الصحف فى مصر على تخصيص جماعة من الأزهريين ليتولوا مراجعة الأخبار والمقالات قبل طبعها ، وتصحيح أخطائها النحوية واللغوية ، وذلك حرصا على أن تظهر لغة الصحيفة أو المجلة خالية مما يعيبها من شوائب الخطأ اللغوى . وهؤلاء المصححون للغة التحرير هم غير المصححين الآخرين الذين يتولون تصحيح تجارب المطبعة مما وقع فيها من هفوات الجمع وعثراته .

وأخطاء تجارب المطبعة فى الصحافة والصحف لا تقل عنها فى الكتب المطبوعة . فالخطأ هنا قائم كما هو قائم هناك . ولا يكاد يسلم كتاب عربى من خطأ مطبعى ، كما لاتسلم صحيفة أو مجلة من ذاك . وعلى حين لا تتجاوز أخطاء المطبعة فى بعض الكتب بضعة

(١) وكأنما صح فى اللغة العربية وخصومها يومئذ—حتى من أبنائها—قول زميلنا الصديق العلامة عبد الله بن كنون من قصيدة عنوانها : « خصوم العربية » :

جهلوها فناصبوها العداء   ومن الجهل ما يكون بلاء

أخطاء أو تطبيعات — كما نسميها اليوم — فإنها قد تبلغ فى بعض الكتب بضع عشرات أو مئات على حسب حظ المطبعة من عناية المصححين وتنبههم :

ولا تخلو الكتب المطبوعة فى أواخرها من جدول لتصحيح ما صدر من أخطاء مطبعية فيها ، على حين لا تهتم الصحيفة —وخاصةاليومية — بتصحيح ما يقع فيهامن تطبيع . وقد وقعت فى ذلك الباب لطائف وطرائف يتندر بها الصحافيون حين يقتضى المقام . . فمن ذلك ما وقع فى صحيفة يومية سيارة حين روت فى أخبارها نبأ عودة أحد الزعماء إلى بيته فى موكب حافل فقالت : (وما بلغ دولته بيت الأمة حتى علا الصهيل) والمقصود طبعاً : حتى علا التهليل . وقال أحد الزعماء فى خطبة سياسية له : (واصغوا إلى صوت الضمير) ، فجاءت بها المطبعة هكذا : (... إلى صوت الحمير) . وجاء فى عنوان خبر صحافى : (الفرنسيون يضيقون الخناق على البصل المراكشى) وصوابها طبعا : (البطل المراكشى) ، ونشرت صحيفة سيارة نبأ عن مروءة أحد المشايخ وهمته ، فعلقت على الخبر قائلة : (وأنها تثنى على عمة فضيلته) . فحرفت الهاء إلى العين . . . وفى العقد الرابع من قرننا هذا قامت حركة تدعو إلى إنصاف رجال القضاء وسرعة ترقياتهم ، فكتب داود بركات رئيس تحرير الأهرام يناصر الحركة قائلا : (يجب تعرية القضاة) وهو تحريف لعبارة (يجب ترقية القضاة) . وفى العام نفسه قامت حركة لإدخال عنصر الشباب فى القضاء بعد أن كان وقفا على الشيوخ ، فنشرت الأهرام خبرا عنوانه : «تجريد ثياب القضاة » وهو تحريف مطبعى عن عبارة (تجديد شباب القضاة).. ونشر أحد محررى الجريدة نعى شخصية كريمة وجاء فيها : (توفى إلى رحمة الله فلان ، أسكنه اللهفسيح جناته) . وعلق «موضب» الجريدة على هامش الخبر بالنشر (إن كان له مكان) فجاء منفذ الحروف وجمع هذه التعليقة بعد الخبر مباشرة . فصدر فى الصحيفة مطبوعا هكذا : (توفى إلى رحمة الله فلان أسكنه الله فسيح جناته ، إن كان له مكان).

ولمطابع الصحف وطابعيها فى هذا الباب طرائف لا تنتهى :

وحين تخلصت لغة الصحافة المصرية من الزخارف اللفظية . والمحسنات البديعية قبل الثورة العرابية بقليل فإنها ظلت محتفظة بالسجع الذى كان مستملحا عند الكتاب والقراء على السواء . وكان السجع — حتى المتكلف — أثر كبير فى نفوس القراء ، وسلطان كبير على نفوس الصحافيين ، ففى عدد من الوقائع المصرية جاء هذا الخبر سنة ١٨٦٥ : (إن أناسا من اللئام ، سفلة الأنام ، ارتضوا بالخزى وارتكاب الآثام فاستبدلوا الاشتغال بأنواع الكسب الحلال بالاشتغال بالحرام والعار ، والدوران فى القرى والأمصار . وكلما صادفوا أناسا

على فطرتهم وحسن نياتهم ، تحيلوا على اصطيادهم بتحيلاتهم ، وعملوا طرق الخديعة والحيل فى سلب أموالهم ، بعد سلب عقولهم بإحدى المغيبات المشهورة بين الناس بالتاتورة ، فيضعونها فى شيء من المأكولات ، ويطعمونها أصحاب العقول الناقصة بدون شعور ، وبعد الحصول على مهامهم يفرون . .) ولم يكتب «للوقائع المصرية » التخلص من هذا السجع البارد المتكلف إلا حين تولى تحريرها الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠ — أى قبيل الثورة العربية بعامين — فى عهد هذا الإمام المفكر الرائد تخلصت لغة الصحافة جملة وفى «الوقائع» خاصة من بقايا المحسنات البديعية ، ومن السجع جملة ، وأصبحت الكتابة مرسلة طليقة من تلك القيود اللفظية التى كانت تجنى على المعنى وتجعله ناقص الأداء السليم . واستعاض الشيخ محمد عبده عن السجع بالازدواج أو الترادف الصوتى ، وهو نوع من السجع لا تلتزم فيه تقفية أواخر الجمل ، بل يلتزم فيه توازن بين الجمل بدون تشابه أواخر الألفاظ .

ومن الإنصاف للتاريخ والحق أن نقول إن الشيخ أحمد فارس الشدياق قد سبق الشيخ محمد عبده فى التخلص من السجع منذ القرن الماضى حتى يومنا هذا . فحين أصدر الشدياق مجلته «الجوانب» سنة ١٨٦١ فى الآستانة ، اتخذ فيها الأسلوب المرسل سواء فى الأخبار الصحفية أو المقالات . وبهذا انقادت له كثير من المعانى وموضوعات العلم والفكر التى كانت لغة السجع تضيق عليها . وحين كان الشدياق يسجع فإنه كان يتخذ ذلك فى المقال الأدبى والعاطفى . أما مقالات السياسة والعلم والأخبار فقد تحرر فيها من قيود السجع والزخرف اللفظى جملة .

ولا ننسى فضل الشيخ إبراهيم اليازجى فى هذا الميدان ، فهو صحافى لغوى عريق فى مجلاته : الطبيب البيروتية ، والبيان والضياء المصريتين . وكأن الثلاثة ، الصحافيين الكبار : أحد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجى ، والشيخ محمد عبده ، كانوا على ميعاد فى تخليص لغة الصحافة — بل لغة الكتابة والإنشاء عامة — من السجع وبقية الزخارف و المحسنات .

ولعل مثالا واحدا من مقالات الشيخ محمد عبده الصحافية فى (الوقائع المصرية) سنة ١٨٨٠ يبين لنا أسلوبه الصحفى المترسل المتحرر من القيود ، السهل العبارة ، الخالى من اللفظ الغريب الجاف ، الداخل إلى عقول القراء من أيسر الأبواب وأسهلها . فهو يقول من مقال سياسى عنوانه (خطأ العقلاء) : (إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية فى أمريكا واعتدال أحكامها والحرية التامة فى الانتخابات العمومية لرؤساء جمهوريتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك ، ونعرف مقدار السعادة التى نالها الأهالى من تلك الحالة ؛ ونعلم أن هذه السعادة إنما

أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين فى مصالحهم بأنفسهم ؛ لأنهم أرباب الانتخابات ، وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس هم نواب عنهم فى حفظ تلك المصالح والحقوق التى رأوها لأنفسهم وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة .

لكننا لا نستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلا ، حال كونها على ما نعهد من الخشونة . فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأى الأهالى ، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها . فلا يمكن الاتفاق على نظام عام . ولو طلب منهم أن ينتجوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا) .

وأين هذا الاسلوب الصحافى المرسل للشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠ فى «الوقائع المصرية » من أسلوبه المسجوع المتكلف المزخرف الموشى . الذى كتبه فى جريدة الأهرام سنة ١٨٧٦ تقريظا لها ، وترحيبا بصدورها ، حيث يقول : (إنه لما ظهر لدى كل قاص ودان واشتهر بين بنى نوع الإنسان ، أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ؛ إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة فى الصنائع والابتكار فى أنواع البدائع فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطرا ، ويستمدون من المحيط نهرا ، فكان التمدن فيها كهلا ، حين كان عند غيرها طفلا. وما زالت كذلك حتى زها فيها التمدن ولا عجب ؛ إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب وأن ملوك الأرض خدام عتبته ، وتيجان الكيانين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلى، ولكئوس الراحة اجتلى..) !

ولغة الصحافة المصرية فى عهد الثورة العرابية هى حسنة من حسنات ذلك العهد الذى كان يتأجج بالشعور الوطنى ، والعاطفة القومية وقد وجدت تلك الثورة فى جماعة من الصحافيين — من أمثال أديب إسحاق، وعبد الله نديم ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى — لسانها المعبر عن آمالها وآلامها. وتمتاز لغة ذلك العهد بالأسلوب الخطابى الذى يعتمد على إثارة الشعور ، وإلهاب العواطف ؛ وذلك باستخدام الألفاظ الطنانة الرنانة التى تترك فى النفوس أعمق الآثار ، وتهيئ الناس لقبول التغيرات والتطورات التى تتطلبها مبادئ تلك الثورة . ونسوق هنا نموذجا من مقالات « أديب إسحاق » الصحفية التى قصد بها فضح نظام الحكومة والحكام فى مصر، تمهيدا للثورة التى قام بها أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وغيرهما من أحرار الضباط ، الذين ثاروا على الخديو وعلى

حكومة الاستبداد ، حيث يقول : (فسلكي أن أكشف حقائق الأمور ، ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادئ الحرية ، وآراء ذوى النقد ، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث أو مقاصد أهل الحل والعقد ، وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا : أولى الأمر ، ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهماً : أمناء الأمة ، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا : ولاة النظام ، وأن أعين واجبات الإنسان الشرقى بالنسبة إلى نفسه وإلى قومه وإلى بلاده ، وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق ، وقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية . وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالاً منهوبا فيطلبوه ....) .

ويمتاز «إبراهيم اللقانى» ، من بين الأربعة الذين ذكرناهم ، بأن أسلوب كتابته الصحافية — على قوته وتأثيره فى النفوس — كان يخلو تماما من كل زخرف أو حلية لفظية أو مبالغة أو إغراق فى التشبيهات والأوصاف ، أو تقعر فى الألفاظ ، وكان يميل إلى عمق الفهم والقدرة على التحليل ، ومخاطبة العقل والمنطق بدلا من استجداء العاطفة .

فمن مقال صحفى له فى جريدة (مرآة الشرق) كتبه سنة ١٨٧٩ — أى قبل الثورة العرابية بثلاثة أعوام — تراه يقول : (هذا سر مانراه فى هذه الأيام من الفتنة والحوادث العظيمة الناشئة عن حركة الخواطر فى البلاد الواقعة تحت رق الاستعباد ، فلا يحسب الناظر إليها ، المتهيب منها ، أنها ناتجة من فساد الأخلاق ورداءة الطباع وسفالة النفوس ، مستدلا على ذلك بما يرتكبه أهلها من المنكرات كالقتل بالاغتيال ، والأسر بالاحتيال ، كلا ! وإنما هى نتيجة استبداد الأمراء ، وعسف الرؤساء ، وظلم الزعماء ، فإن هذه القواسر تنصب على قوة الحرية الكامنة فى صدمة الأفراد ، فيحصل لها الضغط ، فتندفع من بعده ، فتخرج بشدة اندفاعها عن مركزها الطبيعى ، وتفضى بصاحبها إلى الإفراط . وبناء عليه فما القتل وما الأسر وما الفتنة وما الثورات إلا نتائج الاستبداد المترتبة عليه لزوما ووجوبا . .) .

ويجرنا الحديث عن سهولة الألفاظ فى لغة الصحافة فى القرن الماضى ، لدى مدرسة جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ، إلى الحديث عن التقعر والتشدق والإغراب فى اختيار الألفاظ عند بعض الكتاب ، حتى من الشيخ محمد عبده نفسه ، والسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومحررها ، فقد كان الشيخ الإمام ، فى أول أمره وبداية عهده بالصحافة ، محررا بالوقائع المصرية ، يميل إلى الإغراب فى الألفاظ على نحو ما كان يفعل الكتاب المتشدقون ؛ إظهارا للتفاصح والمعرفة باللغة . ولقد تأثر رشيد رضا — وهو

يمثل لغة الصحافة الدينية — بأستاذه وصفيه الشيخ محمد عبده، الذى كان يستعمل أولا ألفاظا غريبة معجمية، مثل: الذبذب لهدب الثوب، والقسطل للغبار، والذملقانى للسريع فى الكلام: والمثفثف بمعنى المتفلسف والمناهدة بمعنى المدافعة، والجهام للسحاب غير المطر، ثم عدل عن ذلك وآثر الألفاظ السهلة، واللغة البسيطة كما آثر التخلص من السجع ومن المحسنات: :

وبعد الثورة العرابية ببضع سنوات — وبالتحديد سنة ١٨٨٩ — أصدر الشيخ على يوسف صحيفة «المؤيد» فطلعت على الناس بأسلوب جديد فى التحرير الصحفى، وفى لغة الصحافة: وكانت بذلك معلما من معالم الطريق. وامتاز أسلوب على يوسف بقوة الحجاج، والجدل، والتعويل على المنطق والإتيان بالأدلة المقنعة، وأصح المقدمات المفضية إلى أصح النتائج، مع الاعتماد على البساطة والسهولة، والاستشهاد بالواقع المحسوس لا البعيد المتخيل والإتيان بالألفاظ على قدر المعانى فى غير زيادة أو نقصان، فليس هناك مبالغة ولا إغراق ولا حشو ولا نقص ولا إخلال، مع القدرة على النقد النزيه البناء، والإكثار من التكرار؛ لتأكيد المعانى فى نفوس القراء. وهو — على شدته وقسوته فى نقد خصومه من رجال الاستعمار والسياسيين — لا يسف ولا يتبذل ولا يهبط إلى مستوى العوام:

ولعل إيراد بعض فقرات من مقاله — الذى كتبه تعليقا على حفلة وداع اللورد كرومر التى أقيمت بدار الأوبرا سنة ١٩٠٧ عقب إبعاده عن مصر بسبب أحداث دنشواى يكشف لنا بوضوح عن لغة ذلك الرائد الصحافى العظيم الذى كانت كتاباته تهز العالم كله ما بين مشرق ومغرب، فهو يقول:

«أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا، ولكنه انقلب — بما جرى فيه — مظهرا عدائيا من اللورد لم ير الراءون، ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام. دعنا من كون رئيس الاحتفال — يريد مصطفى فهمى باشا — أخطأ فى أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معا يقدم عليه سواه فى الكلام:. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه فى احتفال كهذا... ودعنا من زعمه أنه يمثل — مع الحكومة فى موقفه — السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه فى الرأى والقول..:

دعنا من كل هذا، وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله فى مصر، فبينا كانت الأمة المصرية واقفة موقف الآمل، منتظرة من ذلك الراحل العظيم، والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما مضى عليها من الجمود الأبدى

ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدى — بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التى جرحها ، ويضمد الكلوم التى فتحها فى جسمها بما تقدم و بما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ فى إكرام الراحل عند رحيله ، متناسيا الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف . . . بينما كان هذا ، إذا ببركان البيروقراطية — التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته ، حتى برز فيها[1] أكثر من كل مبرز فى تواريخ الحكومات المطلقة — قد انفجرت نيرانه ، وقذف بلظاه على الأحياء والأموات » .

وإذا كان « المؤيد » يمثل الصحافة المصرية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، فإن هنالك صحفا ثلاثة فى أوائل القرن العشرين تمثل اتجاهات واضحة فى لغة الصحافة : بالإضافة إلى اتجاهاتها السياسية التى ليست موضوع حديث فى هذا المقام وهذه الصحف هى (الجريدة) التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد ، وقد أنشأها حزب الأمة سنة ١٩٠٧ لتكون لسان حاله :

وجريدة « الأخبار » التى أصدرها أمين الرافعى سنة ١٩٢٠ ، وجريدة « البلاغ » التى أصدرها عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣ . لقد امتاز لطفى السيد بلغة سهلة مبسطة مرسلة الأسلوب ، لا تقعر فيها ولا تعقيد وقد حاكاها كثير من الصحافيين فى ذلك العهد ، وعدوها نموذجا للغة الصحافة . ولن أضيع وقتكم بذكر نماذج منها ، ويكفى الرجوع إلى كتاب : «تأملات» و «المنتخبات» التى جمعها صديقنا المجمعى القديم إسماعيل مظهر لنبين ملامح الأسلوب الصحافى عند لطفى السيد . أما أمين الرافعى فقد تميزت لغته الصحافية بما تميزت به لغة لطفى السيد ، ويزيد عليه حرارة الإيمان بالعقيدة التى يدين بها ، وصراحة فى مناقشة خصومه ، ووضوح العرض للموضوع فى مقالاته . وكذلك كان عبد القادر حمزة فى مقالاته فى (الأهالى) أولا . وفى (البلاغ) أخيرا . ويتميز أسلوبه الصحافى بالاعتدال والاتزان والواقعية والجد ، وعفة القلم والتفكير المنطقى ، ونتركه يعبر عن أسلوبه الصحافى بقوله : (لم يجر قلمنا بما يثقل على النفس ، ويستكره فى السمع ، أو ينبو عن الذوق ، لأن غايتنا الإصلاح لا الإيلام وطريقتنا هى الإقناع لا الإقذاع وليس فى أسلوب التناول الذى توخيناه ما يمكن أن يشكو منه أدق الناس إحساسا ، وأرقهم

(١) ويلاحظ فى أسلوب على يوسف طول الجمل عنده طولا ملحوظاً ، والبعد ما بين المبتدأ والخبر ، أو الشرط والجواب ، أو بينا الظرفية وجوابها .

شعوراً . . إذ لا جفوة فى العبارة ، ولا عنف فى اللفظ ، ولا إغلاظ فى القول ، ولا شىء غير الموضوع . . .) .

على أن ذكرنا لهذه الصحف الثلاث وهؤلاء الصحافيين الثلاثة لا ينبغى أن ينسينا أسماء كثيرة ، تعد لغتهم نموذجا فى لغة الصحافة المصرية من أمثال العلامة محمد فريد وجدى فى (الدستور) وأحمد حافظ عوض عضو مجمعنا الراحل فى (المنبر) و (كوكب الشرق) ومحمد مسعود فى (المنبر) ، وخليل ثابت فى (المقطم) ، وداود بركات وأنطون الجميل فى (الأهرام) ، وعبد الحميد حمدى فى (المنبر) و (السفور) ، ود . محمد حسين هيكل فى (السياسة) و (السياسية الأسبوعية) وإبراهيم المازنى فى (الاسبوع) ، ومحب الدين الخطيب فى (الفتح) ، وعباس العقاد فى (البلاغ) و (الدستور) ، دياب — فى (الجهاد) وغيرها .

على أن ذكرنا لهؤلاء الأعلام فى العقود الأربعة من هذا القرن العشرين لن يصرفنا عن الإشادة بقلم فى الصحافة المصرية ، تميز بأسلوب جديد منفرد ، كان هو المبتدع له ، وحذا حذوه كثيرون من تلاميذه وهو المرحوم — بلدينا من المنصورة — الأستاذ محمد التابعى ، وقد كتب عنه فى الخمسينيات من هذا القرن أحد تلاميذه يصف أسلوبه قائلا : (مدرسة التابعى الصحفية لها أثرها فى تاريخ الصحافة : لقد حرر أسلوب الصحافة الساخرة من الأسجاع والمترادفات ، فهو الذى أدخل اللغة الكاريكاتورية فى الصحافة : بضعة خطوط سريعة تعبر كأنها لوحة فنية رائعة . كلمة واحدة تلتصق بشخصية السياسى وتحوله من رجل وقور إلى مسخرة . لقد كانت لغة الصحافة قبل ذلك أشبه بفساتين السيدات فى الماضى مليئة بالذيول ، فجعل محمد التابعى لغة الصحافة بسيطة . . .) .

ومن تلاميذ مدرسة التابعى فى الأسلوب : الشقيقان مصطفى أمين وعلى أمين — رحمه الله — وإحسان عبد القدوس ، ومحمد حسنين هيكل :

وقد تميزت لغة الصحافة منذ نشأتها ببعض الأساليب التى انفردت بها عن لغة الكتابة حتى لتكاد تنادى على نفسها بأنها لغة الجرائد والمجلات ، وقد تسرب بعضها من اللغة التركية : فقولهم فى تشريف الرجال : (عطو فتلو أفندى حضر تلرى) ، وقولهم فى فى معرض الأخبار والأنباء والنعى والحفلات وغيرها : أنسنا بلقاء الوجيه الأمثل — مات فلان مبكيا عليه من الجميع — استأثرت رحمة الله بالمبكى عليه — على أثر داء لم ينجح فيه نطس الأطباء — فأكل المدعوون هنيئا وشربوا مريئا — سبق فذكرنا فى عدد

فائت — كنا أول من أذاع هذا الخبر — سيدنا فهرست الكمال : وعنوان الجلال (وصفا لجمال الدين الأفغانى) — البقية تأتى — سابق للاحق (إذا كان للمقال بقية ستأتى) :

ومن العبارات التى تدخل فى روع القراء توثيق الأخبار ، وأنها لا يرقى إليها الشك ، قولهم فى لغة الصحافة : علمنا من المصادر العليمة — ومن دوائر الحل والربط — وممن بيدهم مقاليد الأمور : وقد يكون محرر الخبر أو مخبر الجريدة نقله عن ساعى أحد الوزراء ، أو تلقفه من موظف صغير جدا فى الوزارة — وقد وفق الصحافى البارع فكرى أباظة رحمه الله إلى إلغاء هذه العبارات من قاموس لغة الصحافة ، واستعاض عنها بقوله أخبرتنا جاسوستنا الحسناء . . . والمؤدى فى الحالين واحد ... وهو أنه ليست هناك مصادر عليمة ولا دوائر الحل والربط ، ولاحتى جاسوسة حسناء ... ولكنه اجتهاد من الصحفى المحتال لتلقف الأخبار وتصيدها من الأفواه :

ولم تقف اللغة جامدة أمام تطور الصحافة وظهور أنواعها ، من صحافة سياسية ، وصحافة علمية وصحافة أدبية ، وصحافة دينية ، وصحافة فكاهية نقدية :... فتطورت اللغة فى هذه الأنواع الصحفية حتى تلائم أهدافها ، وتوافق أغراضها :... وتحولت لغة النقاش والحوار والجدل السياسى إلى لغة خاصة فى الصحف والمجلات السياسية والحزبية ، كالذى حدث بين صحف اللواء ، والمؤيد ، والجريدة ، والأهالى والبلاغ والسياسة التى أصدرها حزب الأحرار الدستوريين . كما تحولت اللغة فى مجلات « المقتطف » و «الهلال » ، « والعربى » ، التى رأس تحريرها المرحوم د. أحمد زكى — عضو مجمعنا الراحل — إلى لغة العلم التى كان يكتب بها أمثال د : يعقوب صروف ، و د : حسن كمال ، وفؤاد صروف ، وعاطف البرقوقى وكذلك تحولت اللغة — فى مجلات (الهلال) و (رعمسيس) و (البيان) لعبد الرحمن البرقوقى و (الرسالة) لأحمد حسن الزيات ، عضو مجمعنا الراحل ، و (الثقافة) لأحمد أمين أمين ، عضو مجمعنا الراحل ، و (الجديد) لمحمد حسن نائل المرصفى ، و (الزهور) لأنطون الجميل ، عضو مجمعنا الراحل — إلى لغة الأدب التى يميزها التأنق ، وحسن السبك ، وصحة العبارة ، والترسل ، والوضوح والنقاء . كما ظهرت فى مجلة (المنار) الدينية ومجلة (الأزهر) لغة تعبر عن أغراض الدين وحكمته وآفاقه الإنسانية ببيان عال ، وأسلوب مشرق تجلى فى مقالات : رشيد رضا ، ومحمد فريد وجدى ، وغيرهما :

أما صحف الفكاهة والنقد والسخرية فقد ظهرت فيها لغة خاصة متميزة تعبر عن هذه المعانى أصدق وأحلى تعبير : وقد ظهرت فى هذا الميدان أسماء لامعة ، كان الجمهور يقبل على قراءتها ، ويتلقى نتاجها بشغف

عظيم من أمثال سليم سركيس صاحب مجلة «سركيس» الذائعة الصيت ، وحسين شفيق المصرى الذى كان فيه اقتدار عظيم على الجمع بين لغة الجد ولغة الهزل ، فلا تحس أن هذا الكاتب الهازل هو ذلك الكاتب الجاد ، وسليمان فوزى صاحب الكشكول وهو أستاذ فى هذا الباب . وزميلنا المجمعى الراحل إبراهيم عبد القادر المازنى الذى ارتفع أسلوبه النقدى اللاذع إلى كفة تدانى لغة البلغاء من كتاب العصر العباسى :

ولم تعش الصحافة بمعزل عن اللغة ، ولا عاشت اللغة بمعزل عنها ، فقد كان من الصحافيين من يناصر اللغة ويدعو لها فى تحمس كبير ، ويجعلها من مقومات الذاتية للأمم كما رأينا من قبل عند عبد الله نديم فى مقاله : (إضاعة اللغة تسليم للذات) الذى كتبه قبيل الثورة العرابية . وكان من رجال الصحافة اللغويين من رصد قلمه ، ووقف نشاطه على تصحيح الأوهام والأخطاء اللغوية التى يقع فيها الصحفيون والكتاب ، من أمثال إبراهيم اليازجى ، وأسعد داغر ، ونجيب شاهين ، والأب أنستاس الكرملى – عضو مجمعنا الراحل – وقد تمخضت هذه التصويبات اللغوية عن كتاب (لغة الجرائد) لإبراهيم اليازجى ، و (تذكرة الكاتب) لأسعد داغر : ووجدنا فى هذا الباب اهتماما أكثر من اللغويين بلغة الصحافة خاصة واللغة العربية عامة ، فقام العلامة اليازجى بإنشاء مجلة الطبيب فى الشام ، والبيان والضياء فى مصر ، وكاد يجعل تلك المجلات وقفا على الدراسات اللغوية . كما قام الأب أنستاس الكرملى بإصدار مجلة (لغة العرب) التى كان لها فضل أى فضل فى خدمة اللغة العربية .

بقى أن نشير – ونحن فى معرض الحديث عن لغة الصحافة – إلى ظهور تعبيرات وألفاظ خاصة فى زماننا هذا يراد بها تجنب استعمال الألفاظ اللغوية الأصليه للمعانى ووضع تعبيرات تكون أخف وقعا على مسامع الجماهير والقراء ، مع أنها تدل على المعانى الأصلية بطريقة ملطفة ومخففة : وقد تكون تلك العبارات من وضع الجهات المسؤولة أو من إيحاءاتها ، كما قد تكون من وضع الصحافة نفسها : وذلك مثل : (تحريك الأسعار) ويقصدون زيادتها ، و (الرأى الآخر) ويقصدون المعارضة ، و (المتحفظ عليهم) ويقصدون المقبوض عليهم و (النكسة) ويقصدون الهزيمة ، و (السلبيات) ويقصدون الأخطاء ، و (التجاوزات) ويقصدون الجرائم ، و (ترشيد الاستهلاك) ويقصدون نقصه وتقليله و (الدعم) ويقصدون الإعانة . وهذا باب من البيان الذى لا يخفى على حس المواطنين وفطنتهم ...

سادتى :

أخشى أن يكون تيار الصحافة — وهى بحـر متلاطم ، بل محيط لا ساحل له — قـد جرفنى بما فاتنى معه تقدير الوقت ؛ وبما أحاذر أن أكون أطلت عليكم فأمللتكم .

ولهذا أبادر إلى الختام إشفاقا عليكم ، وحرصا على وقتكم ... ولكن لابد من فكاهة تتصل بموضوع اللغة ، مادمنا فى معرض المحاضرة عن لغة الصحافة .وندع الصحافى الفكه ، الساخر ، الخفيف الظل : فكرى أباظة يقول فى مذكراته الرشيقة :

« كتبت عن رجل كبير ، فقلت إنه يزحف نحو المجد ، ونحو القمة بسرعة ... فطلبنى بالتلفون ، وكلمنى ثائرا غاضبا من كلمة (يزحف) قائلا : أترانى طفلا صغيرا ؟ وهل هذا يليق ؟ قلت له بكل هدوء : سل أحد اللغويين عن معنى «يزْحَف» فى هذه العبارة . وكلمنى من فضلك بعد خمس دقائق ؟ وبعد خمس دقائق كلمنى قائلا : شكرا يافكرى ! اللغويين بيقولوا إن يزحف دى كويسة » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد عبد الغنى حسن

عضو المجمع